البعد الواقعي في فقه التغيير على ضوء المنهج النبوي

بقلم

د/ أكرم بلعمري(*)

ملخص

يهدف هذا الموضوع إلى دراسة مظاهر الواقعية في سيرة النّبي صلى الله عليه وسلم، وقد تمّت معالجة الموضوع من خلال التّعريف بالواقعية وبيان حضورها في الممارسة النّبوية، من خلال منطق السّنة العملي وأثره في فقه الواقع، وقد برزت مظاهر الواقعية في منهج النّبي ﷺ في الدّعوة من خلال معرفته بأحوال النّاس عموما، ومراعاة ذلك في الفتوى، وتجلّى هذا البعد في المرونة في حلّ الأزمات المختلفة، وبرز أيضا في الفعالية في توظيف الكفاءات، واعتماد منهج التّدرج في التّغيير، سواء من خلال مرحلية الدّعوة أو التّشريع.

الكلمات المفتاحية: البعد الواقعي، المنهج النبوي ، السيرة النبوية.

المقدمة

تعتبر السّنة النّبوية – بعد القرآن الكريم– مصدرا ثانيا من مصادر التّأسي في مشاريع الاستخلاف المعاصرة، فلئن كان المقصد من القصص القرآني في سرده لنماذج النّهوض التّي قام بها الأنبياء * هو التّسلية للنّبي ﷺ في دعوته، فإنّ هذا المقصد متعّد ومتجاوز إلى جهود التّغيير المعاصرة لتستلهم من المنهج النّبوي في التّغيير بالأسوة، وبما أنّ السّنة النّبوية تشكّل مرجعا أساسا لكلّ قوى التّغيير، باعتبارها مجموع مواقف ممنهجة ومنظّمة، راعت جميع جوانب بناء الإنسان، ماديا، وأخلاقيا، ونفسيا، على المستويين الفردي والجماعي ...، وقدّمت أنموذجا مثاليا عبر حركة التّاريخ؛ ممّا يحتّم على المقتدي بالمنهج النّبوي تتبّع كلّ ما من شأنه أن يوصل إلى تحقيق أكبر النّتائج للحركة الإصلاحية.

(*) أستاذ محاضر صنف "أ" قسم أصول الدين ـ معهد العلوم الإسلامية ـ جامعة الوادي، وعضو مخبر إسهامات علماء الجزائر في إثراء العلوم الإسلامية. akrambell19@hotmail.fr

تاريخ الإرسال: 2018/04/15 تاريخ القبول: 2018/05/15

من هنا تبرز إلزامية الحديث عن المنهج النّبوي لإبراز البعد الواقعي في دعوة النّبي ﷺ، وقراءة السّنة النّبوية قراءة حركية، تكون النّواة الأساسية لمشاريع الإصلاح المعاصرة.

فما هي أهمّ ملامح الواقعية في دعوة النّبي ﷺ؟، وكيف راعى المصطفى أهميّة هذا البعد في حركة التّغيير؟، وكيف يمكن الاستثمار في المنهج النّبوي كإطار مرجعي ملهم لحركات التّغيير المعاصرة؟ وكيف تسهم السّنة النّبوية في قراءة الواقع المعاصر ؟.

وللإجابة عن هذه التّساؤلات حاولت هندسة هذا الموضوع وفق العناصر الآتية:

- المقصود بالواقعية.
- حضور البعد الواقعي في الممارسة النّبوية.
- منطقية السّنة وأثرها في فقه الواقع.
- مراعاة أحوال النّاس.
- مراعاة الأحوال في الفتوى.
- المرونة في حلّ الأزمات.
- خاصية التّدرج.
- الفعالية في توظيف الطّاقات.

1- المقصود بالواقعية:

هي التعامل الموضوعي مع الواقع الإنساني في أبعاده الفطرية الثابتة، وما يطرأ عليها من أوضاع وملابسات، لتكييفه تدريجيا مع سنن الله في الآفاق والأنفس والكتاب، وترقيته إلى المستوى الاستخلافي الممكن.[1]

فالمتتبّع لمنهج النّبي ﷺ في الدّعوة يجده "واقعيا في كلّ خطواته، لا يهمل الواقع الإنساني، ولا يسقطه من حساباته، اتّكالا على كونه نبيّا مؤيّدا بالوحي، ومسدّدا به، بل كان شديد العناية بمعرفته، والإحاطة بأوضاعه وملابساته، التّي كثيرا ما كيّف على ضوئها خطواته ومواقفه الإجرائية للإفادة منها في تحريك الأحداث بإيجابية نحو تحقيق مقاصد الدّعوة وأهدافها ... فالمرونة في التّعامل مع الواقع الإنساني خاصية أساسية في المنهجية النّبوية حيث كان عليه الصّلاة والسّلام يبدأ في تغيير واقع الناس أفرادا وجماعات، من النّقطة التّي هم فيها فعلا، ولا يغفل واقعهم وملابساته، بل يتحرك بهم في حدود الطّاقة البشرية، وفي حدود الواقع المعاش في شتّى البيئات والمستويات، ليرتقي بهم شيئا فشيئا، نحو مستويات رفيعة من الإيمان والالتزام والعطاء".[2]

2- حضور البعد الواقعي في الممارسة النّبوية:

يعتبر فقه الواقع أمرا حتميا لكلّ دعوة، واهتمام النّبي ﷺ به يعدّ أمرا طبيعيا باعتباره صاحب رسالة خاتمة، ولا شكّ أنّ هذه الخاتمية تقتضي وصول التبليغ إلى أبعد حدّ يمكن أن تصله هذه الرّسالة، لذا حرص النّبي ﷺ على معرفة محيط دعوته، ابتداءً بمكة مرتكز دعوته في بداية أمر الرّسالة ليتجاوزها فيما بعد – مرحليا- تبعا للظّروف التّي تزامنت مع دعوته، لذا فإنّه ليس من الغريب الحديث عن البعد الواقعي في عملية التغيير التّي انتهجها النّبي ﷺ، بل إنّها هي الملهم الأول لأيّ عمل دعوي، لأنّنا نعتقد أنّ الحركات الاصلاحية المعاصرة امتداد للدّعوة النّبوية، تستشرف منها المستقبل؛ وتستفيد من منهجه ﷺ في الدّعوة، وفي المحافظة على منجزاتها، وفي مواجهتها لكثير من التّحديات التّي تجابهها.

وحضور البعد الواقعي في دعوة النّبي ﷺ أمر مستلهم من القرآن الكريم، فهو الموجّه للحركة النّبوية، فكثيرة هي النّصوص القرآنية الآمرة له بمعرفة ما حوله، واعتبار الواقع واستشراف المتوقّع، ولو تتبعنا السّياق القرآني لنزول كثير من الآيات لوجدنا أنّها تتابع حركية الدّعوة على اختلاف مراحلها، ففي المرحلة المكية دعا القرآن الكريم النّبي ﷺ إلى استبانة سبيل المجرمين ومعرفة كيدهم لدعوته ورغبتهم في استئصالها، قال تعالى:" **وَكَذَلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ وَلِتَسْتَبِينَ سَبِيلُ الْمُجْرِمِينَ**"[3]، أمّا في المرحلة المدنية وبحكم تعدّد العلاقة بينه ﷺ وبين اليهود والنّصارى والمنافقين، فإنّ القرآن الكريم دعاه إلى معرفة ما يتعلّق بهم خدمة لدعوته؛ وضمانا لها من الاحتواء أو الاستئصال أو ما يمكن أن يحول بينها ووصولها لأتباعه، فقال بخصوص اليهود والنّصارى:" **وَلَنْ تَرْضَى عَنْكَ الْيَهُودُ وَلا النَّصَارَى حَتَّى تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ**"[4]، وقال أيضا:" **الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمْ وَإِنَّ فَرِيقاً مِنْهُمْ لَيَكْتُمُونَ الْحَقَّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ**"[5]، وفي خصوص المنافقين أنزل عليه سورة كاملة تفضح أمرهم وتكشف دسائسهم، وقال فيها:" **وَيَحْلِفُونَ بِاللَّهِ إِنَّهُمْ لَمِنْكُمْ وَمَا هُمْ مِنْكُمْ وَلَكِنَّهُمْ قَوْمٌ يَفْرَقُونَ**".[6] والمقصد من كلّ ذلك هو تفعيل حضور المعرفة بما يحيط بالدّعوة النّبوية.

وفي السيرة والحديث النّبوي العديد من النّصوص الشّريفة التّي تكشف عنايته ﷺ بأمر فقه الواقع، وتربية الأتباع على العناية الشّديدة به، بما يضمن نجاح الدّعوة وحماية أتباعها من كلّ خطر يتهددهم، ولعل من شواهد ذلك مراعاته ﷺ للواقعية في تقرير الأحكام المتعلقة بالأفراد فعن أبي هريرة ﷺ قال: بينما نحن جلوس عند النبي ﷺ إذ جاءه رجل؛ فقال: يا رسول الله هلكت. قال:" مالك ". قال: وقعت على امرأتي وأنا صائم. فقال رسول الله ﷺ:" هل تجد رقبة تعتقها؟ ". قال: لا. قال:"فهل تستطيع أن تصوم شهرين متتابعين؟". قال: لا. فقال:"فهل تجد إطعام ستين

مسكينا". قال لا . قال فمكث النبي ﷺ. فبينا نحن على ذلك أتي النبي ﷺ بعرق فيه تمر، والعرق المكتل. قال:"أين السائل". فقال: أنا. قال:" خذ هذا فتصدق به ". فقال الرجل: أعلى أفقر مني يا رسول الله ؟ فوالله ما بين لابتيها -يريد الحرتين- أهل بيت أفقر من أهل بيتي. فضحك النبي ﷺ حتى بدت أنيابه. ثم قال:" أطعمه أهلك ".[7]

ومن شواهد ذلك مخاطبة الناس حسب فهومهم ودرجات وعيهم حسب قدراتهم، كقولهﷺ:" حدثوا الناس بما يفهمون ، أتريدون أن يكذب الله ورسوله". ومراعاة أحوالهم في المنشط والمكره واعتبار حاجاتهم، كحديث المحتلم المجروح[8]، وحديث تخفيف الصلاة[9]، والشواهد على ذلك كثيرة لا تحصى.

إذن فحضور فقه الواقع في السّنة النّبوية كان أمرا عمليا،" فالرّسول ﷺ كان يضع كلّ ذلك في الحسبان، وهو يضع اللّبنات الأولى في بناء الصّرح الحضاري للأمة الإسلامية في عالم الغد، وبناء دورها في الشّهادة على النّاس والقيادة لهم وإلحاق الرّحمة بهم، والمساهمة في معالجة أزمة الإنسانية في كلّ العصور، عبر بثّ قيم ثقافية جديدة تعالج الواقع من أوجاعه وعينها على المستقبل الواعد".[10]

3- منطقية السّنة وأثرها في فقه الواقع:

إنّ منهج السّنة في التّعامل مع الظواهر بمختلف أنواعها والواقع منهج متميّز، أخذ قوته الاستدلالية، ومنهجه البرهاني، من منهج القرآن الكريم، الذّي يمتلك حق النّظر في الماضى، والحاضر، والمستقبل، وفي كلّ غيب علمه عند الله سبحانه وتعالى، ويتحكّم في هذه الحركة بشكل مستوعب، وصحيح لا ريب فيه مطلقاً... وعلى هذا فالسنة النّبوية مثلاً عندما تتحدّث عن (قصص الأنبياء)، فهي تكشف لنا عن تجارب حضارية عميقة وعن تركيب جوهري للحقيقة الدّينية، مع حوادث الكون والحياة. ومن هنا يكون للقصص النّبوي، حقّ كشف السّنن، وتوجيه النّاس إلى سنن الهداية. فعندما تعطي السنة النّبوية حكماً حضارياً، وتاريخياً مطرداً، فإنّما تأخذ حجّتها من الموقف القرآني الكلّي، وتعتمد فيما وصلت إليه على استقراء كلّي للمنطق القرآني في دراسته للظّاهرة التّاريخية.[11]

حيث إنّ هذا المنطق للسّنة النّبوية منطق عملي يربط بين أعمال القلوب وأعمال الجوارح، ويربط بين الجزاء الدّنيوي والجزاء الأخروي، وذلك حتّى يرتبط المسلم بدينه روحا وبواقعه عملا، وفي الحديث عن النّبي ﷺ:" من نفّس عن مؤمن كربة من كرب الدّنيا، نفّس الله عنه كربة من كرب يوم القيامة .. ومن يسّر على معسر، يسّر الله عليه في الدّنيا والآخرة .. ومن ستر مسلماً، ستره الله في

الدّنيا والآخرة .. والله في عون العبد، ما كان العبد في عون أخيه .. ومن سلك طريقاً يتلّمس فيه علماً، سهل الله له طريقاً إلى الجنة".[12]

فكلّ الظواهر الاجتماعية والاقتصادية والثقافية منبثقة من واقع المسلمين، يحرص منطق السّنة العملي على الرّبط بين بعديها الدّيني والدّنيوي، فكلّ سعي للإصلاح الحضاري له أثره في فقه واقع المسلمين، ابتداء وله جزاء أخروي انتهاء، وبذلك تحقق السّنة النّبوية منطقها في الجمع بين العمل والجزاء انطلاقا من إدراك الواقع.

كما أنّ من مستلزمات هذا المنطق العملي أن توجّه النّبي ﷺ وهو يؤسّس المجتمع الإسلامي المدني إلى أولى خطوات البناء من خلال تشييد المسجد النّبوي على اعتبار أنّ هذه المؤسّسة هي الكفيلة بإذابة الفروقات بين المنتسبين إلى هذه الدّعوة، كما أنّه مركز لإدراك ما يتعلق بواقع المسلمين وما يستجّد في حياتهم يوما بعد يوم، في جميع مجالات الحياة السّياسية والاجتماعية والاقتصادية والثقافية؛ فهو مركز الاشعاع الذّي تشع منه كلّ القرارات المنظّمة للدّولة الحديثة.

ومن مستلزمات المنطق العملي للسنة النّبوية من أجل إدراك الواقع هو تمتين شبكة العلاقات الاجتماعية للمسلمين، خاصّة وأنّ الدولة المسلمة في مرحلتها الجنينية تحتاج لكل القوى التي تساعد على نهضتها فعمد النّبي ﷺ إلى المؤاخاة بين المسلمين، مهاجرين وأنصارا، كل ذلك من أجل اختزال الزمان والمكان، وإذابة كل الفوارق الاجتماعية بين الطائفتين، لأن النّبي ﷺ يدرك أن التحدي عملي بالدرجة الأولى وأن ما ستواجهه الدولة الفتية يحتاج إلى كل أبنائها ولا مجال لأي منافسة خارجة عن حدود التقوى التي تأسس عليها هذا المجتمع.

ومن مستلزمات المنطق العملي للنّبي ﷺ وإدراكا منه لفقه الواقع المحيط بالدّعوة الإسلامية، ومعرفته بأحوال المجتمع غير المسلم الذي يتعايش مع المسلمين في المدينة، عمد ﷺ إلى تأسيس دستور الدولة من خلال وضع الصحيفة التي تضمن حقوق وواجبات كل الأطياف التي تعيش بين أكناف المدينة النّبوية، ضمانا لحق المواطنة سواء باعتبار الاجتماع الديني أم الاجتماع القطري، فضمن لليهود حقهم من العيش فيها من حيث النصرة والحماية والثروات، وضمن للمسلمين أيضا ما ضمنه لليهود، كل ذلك وفق بنود الصحيفة، وهذا تأسيس منه ﷺ للعهود والمواثيق الدولية.

إذن يمكن اعتبار أن منطق السنة النّبوية يرتبط ارتباطا وثيقا بكل ما يتعلق بفقه الواقع والمتوقع، فكل الإجراءات العملية والتّنظيمية والتّوجيهية الصّادرة عن النّبي الكريم أساسها ضمان إدراك شامل لكلّ ما يتعلّق بالمجتمع الإسلامي وما يتعلّق بغير هذا المجتمع وفق المبادئ الأخلاقية

المراعية للسّلوك الفردي والجمعي في العلاقات بين المسلمين وغيرهم.

4- معالم البعد الواقعي في الممارسة النّبوية:

من خلال استقراء المنهج النّبوي في الدّعوة إلى الله، يمكن استخلاص أهمّ المعالم التّي يتجلّى فيها اعتبار فقه الواقع، ومدى مراعاته ﷺ لهذا الأمر، من خلال ما يلي:

أ- مراعاة أحوال النّاس:

تختلف طبائع النّاس من مكان إلى آخر ومن زمن إلى آخر، ذلك أنّ الله ﷻ قد جعلهم على صفات متفاوتة، وإدراكات متباينة، وطبائع مختلفة، ولأجل ذلك تختلف طرق التّعامل مع كلّ صنف من هؤلاء النّاس، فمنهم من يستجيب لأول وهلة، ومنهم من يحتاج لأكثر من وسيلة إقناع، لأنّ فيهم العالم والمتعلّم، وفيهم الجاهل والأمّي، لذا كان من أساسيات المنهج النّبوي أن عرف طبائع كلّ صنف، وأدرك معادلاتهم النّفسية والاجتماعية، واختار لكلّ طائفة الخطاب والأسلوب التّي يناسبها، فما يقال للمسلم الحديث عهد بالإسلام، لا يقال للمسلم السّابق بالإيمان، ولا يقال لغيرهما من غير المسلمين، ولقد كان من سمات المنهج النّبوي في مراعاة أحوال الناس إدراكا لطبيعة كلّ فئة، شمول كلّ ما يتعلق بالخطاب من طريقة كلام، وهيئة جلوس، واستخدام التّمثيل لتقريب المعنى، وإيضاح المضمون بكلّ وسيلة، حتّى يتيّسر استيعابه للمستمع، وهكذا.[13]

فقد كان ﷺ حينما يتحدّث حديثا لو عدّه العادّ لأحصاه مثل ما روت أمّنا عائشة[14]، والمقصود منه عدم الإسراع في التّحديث والتّقليل منه، وكان يرفع صوته أو يغيّر من هيئة جلوسه إشعارا بأهميّة الحديث، كما في حديث جابر بن عبد الله عند مسلم قال:" كان رسول الله ﷺ إذا خطب، احمرّت عيناه وعلا صوته واشتدّ غضبه، حتّى كأنّه منذر جيش".[15] وهذا حينما يغضبه أمر أو يحدّث عن أمر مهول.

كما كان ﷺ في مراعاته أحوال النّاس أثناء تحديثهم يجمع بين القول والإشارة والقياس والتّمثيل والرّسم على الأرض والأمر بالكتابة، كما في حديث أبي موسى الأشعري:" المؤمن للمؤمن كالبنيان، يشدّ بعضه بعضا، وشبّك بين أصابعه".[16] وفي حديث عبد الله ﷺ قال: خطّ النّبي ﷺ خطّا مربعا وخطّ خطّا في الوسط خارجا منه، وخطّ خططا صغارا إلى هذا الذّي في الوسط من جانبه الذّي في الوسط، وقال:" هذا الإنسان وهذا أجله محيط به أو قد أحاط به، وهذا الذّي هو خارج أمله، وهذه الخطط الصّغار الأعراض، فإن أخطأه هذا نهشه هذا، وإن أخطأه هذا نهشه هذا".[17]

كما أنّ من بين سمات المنهج النّبوي في مراعاة أحوال النّاس إدراك الفروق بينهم، فكان يختلف

حديثه من شخص إلى آخر تبعا لطبيعته و طبيعة موضوعه أو ما تعلّق بذلك، فكان يخصّ بعض الصّحابة ببعض المهمّات والأخبار، كتخصيصه حذيفة بن اليمان بمعرفة أسماء المنافقين، وبشارته معاذا أن من مات لا يشرك بالله شيئا دخل الجنّة.[18]

كما كان يمتنع عن بعض التّحديث حتّى لا يسوء تأويله، روت عائشة ﵂ أنّ النّبي ﷺ دخل عليها فقال: " لولا أن تبطر قريش، لأخبرتها بما لها عند الله ﷻ".[19]

ولقد اختلفت بعض أجوبة النّبي ﷺ للنّاس مع كون السّؤال واحدا، وهذا تبعا لطبيعة كلّ سائل، وهو من باب معرفة خصائص النّاس وطبائعهم[20]، كما في سنن أبي داود عن أبي هريرة ﵁ أنّ رجلا سأل النّبي ﷺ عن المباشرة للصّائم، فرخصّ له، وأتاه آخر فسأله، فنهاه، فإذا الذّي رخّص له شيخ والذّي نهاه شاب".[21]

كما تختلف وصايا النّبي ﷺ للسّائلين باختلاف الحال لكلّ سائل، فهذا يوصيه بعدم الغضب[22]، وآخر يدلّه على أبواب الخير بعدم الإشراك بالله والصّلاة والصّوم والزّكاة[23]، كما تختلف إجاباته ﷺ عن سؤال أفضل الأعمال تبعا لأحوال الزّمان والمكان، فمرّة أجاب لما سئل عن أيّ الإسلام خير؟، قال" تطعم الطّعام، وتقرأ السّلام على من عرفت وعلى من لم تعرف".[24] ومرّة أجاب عن أيّ العمل خير؟، فقال: " إيمان بالله ورسوله" ثمّ " الجهاد في سبيل الله" ثمّ "حج مبرور".[25]

فالنّاظر في هذه الأحاديث يجد بينها تنوعا في الإجابة رغم أنّ السّؤال واحد، ولا تفسير لذلك إلاّ اختلاف أحوال السّائلين واعتبار الفروق بينهم.

كما كان ﷺ ينوّع في أسلوب الحديث، فيستخدم اللّين والترغيب مع المخالفين والمخطئين، ويستخدم الشّدة مع العصاة على حسب الحال، ويداعب الأطفال ويمازح الكبار، ويسابق زوجاته، ويوصي بالنّساء خيرا، كما كان يراعي أحوال غير المسلمين من المعاهدين والذّميين وأهل الكتاب واليهود والزّعماء والملوك، فيعرف لكلّ منهم طريقته وأسلوب الحديث معه ووسائل محاورته، وفي هذه المراعاة فوائد تربوية ودعوية كبيرة يحتاجها الدّاعية المعاصر في ممارسته الدّعوية فيستأنس بالمنهج النّبوي في ذلك.

5- مراعاة الأحوال في الفتوى :

إن في منهج النّبي ﷺ في الفتوى لقيما عظيمة، تراعي حال المستفتي، فيُفتيه بما يتلاءم مع حاله، فمن أساسيات منهج الفتوى عند النّبي ﷺ؛ التّعرف على حال المستفتي وإجابته بما يناسب حاله، وفي السّنة النّبوية شواهد كثيرة على ذلك، وقد أشار ابن القيم رحمه الله إلى بعضها في كتاب "إعلام

الموقعين" تحت عنوان: فصل في تغير الفتوى واختلافها بحسب تغير الأزمنة والأمكنة والأحوال، كسقوط حد السرقة عام المجاعة مراعاة للواقع واعتباره شبهة قوية تسقط الحد.[26]

ومن الشواهد ما رواه البخاري عن أبي هريرة ﷺ أنّ أعرابيا أتى رسول الله ﷺ فقال: إنّ امرأتي ولدت غلاما أسود، وإنّي أنكرته. فقال له رسول الله ﷺ:" هل لك من إبل؟" قال: نعم. قال:" فما ألوانها؟. قال: حمر. قال:" هل فيها من أورق؟". قال: إنّ فيها لورقا. قال:" فأنّى ترى ذلك جاءها؟". قال: يا رسول الله عرق نزعها. قال:" ولعل هذا عرق نزعه"، ولم يرخّص له في الانتفاء منه.[27]

وفي الحديث أسلوب نبوي كريم قائم على تحديث النّاس على قدر عقولهم، فأفتى ﷺ الأعرابي وأجابه بمثال من محيطه ليبلغ به عقله، ويعي من أين جاء السّواد في نسله.

ومن منهجه أيضا في الفتوى إجابته السّائل بأكثر ممّا يحتاج إليه، مراعاة لحاله، ويقينا أنّ السّائل قد يحتاج لمعرفة أكثر من سؤاله، وينتفي عنه الحرج، ومن أمثلة ذلك، ما عند البخاري عن ابن عمر ﷺ عن النّبي ﷺ: أنّ رجلا سأله: ما يلبس المحرم؟. فقال:" لا يلبس القميص ولا العمامة ولا السّراويل ولا البرنس ولا ثوبا مسّه الورس أو الزّعفران، فإنّ لم يجد النّعلين فليلبس الخفين، وليقطعهما حتّى يكونا تحت الكعبين".[28]

وعند أبي داود في سننه أنّ أبا هريرة ﷺ قال: سأل رجل رسول الله ﷺ فقال: يا رسول الله، إنّا نركب البحر ونحمل معنا القليل من الماء؛ فإن توضّأنا به عطشنا؛ أفنتوضّأ من ماء البحر؟. فقال رسول الله ﷺ:" هو الطّهور ماؤه، الحلّ ميتته".[29]

ففي هذه الأحاديث ما يحتاجه المفتي من قواعد تتعلّق بالفتوى بخصوص التّيسير على المستفتي، ومراعاة حاله ومعرفة ما تعلّق به، وعدم التّشديد عليه، وإجابته بأكثر مما يحتاج إليه، وتفهيمه، وغير ذلك.

6- المرونة في حلّ الأزمات:

إنّ من أساسيات إدراك فقه الواقع في الممارسة النّبوية من خلال تتبّع مختلف الأحداث التّي مرّت بها السّيرة النّبوية ومن خلال مسح ما تواتر من نصوص نبوية؛ ما يمكن أن نصطلح عليه المرونة في التّعامل مع الأزمات التّي تمرّ بالمجتمع الإسلامي سواء على مستوى الأفراد أم على المستوى الجمعي، فالمقصود بالمرونة هو التكيّف مع المشكلة التّي يتعرض لها المجتمع الإسلامي ومحاولة إيجاد أيسر الحلول لها؛ تطبيقا وتنزيلا وبأقلّ التكاليف، ولا يتيّسر ذلك ما لم يكن السّاعي لهذا الأمر على بيّنة بكلّ ما يتعلق بالمجتمع من حيث تركيبته الثّقافية وخلفيته الفكرية، ولقد كان من أسس

المنهج النّبوي " **ما خُيّر رسول الله بين أمرين إلاّ اختار أيسرهما**، ما لم يكن إثما "[30]، ويعبّر هذا المبدأ الحديثي عن المرونة في التّفكير والتّعامل مع الواقع، والذّي يعد جزءا مهمّا من عناصر التّفكير الاستراتيجي، وبهذا المعطى نجد هذا المبدأ من ضرورات إدارة الأزمات وحلّها، ووجه دلالة الحديث عليه أنّ كلّ مشكلة توجد لها حلول متعدّدة، إلاّ أن بعض الحلول ربّما تكون صعبة في التّطبيق وتؤدّي إلى إحداث مشكلة جديدة، أو إلى تأزّم المشكلة الواقعة أكثر مما كانت عليه من قبل ... والمرونة لا تعني اختيار أيّ حلّ سهل ميسور ولو كان يؤدّي إلى التّنازل عن المبادئ والقيم الدّينية والخلقية، فليس هذا من المرونة ولا من الشّهامة والرّجولة التّي يبيّنها الدّين في شخصية المسلم، بل هي تعني أن لا يقتصر الإنسان في فهمه وتعامله على جانب واحد من جوانب الحق لا يتعدّاه إلى غيره من الجوانب، وإنّما تكون عنده موهبة الاستجابة العقلية التّي تمكّنه من التّكيّف الإيجابي مع مواقف الحياة المختلفة، سواء كان هذا التكيّف بالتّوسط، أم القابلية للتّغير، أم الأخذ بأيسر الحلول.[31]

ولا يمكن أن يمتلك الداعية للمرونة في حلّ مختلف الأزمات ما لم يكن على بيّنة تامة بالواقع الذّي يحياه، لأنّ الدراية بالواقع جزء من معرفة الحلول للمشكلة، واختيار الحلّ الأنسب يكون مرتكزه الأول هو التّكيف مع الواقع الذّي بدت فيه المشكلة ومعرفة أيّ الحلول يناسبها.

وفي المنهج النّبوي شواهد كثيرة يتجلّى فيها أثر الدّراية بالواقع في اختيار أنسب الحلول انطلاقا من مبدأ المرونة في التّعامل، وتطبيقا لأصل الاستشارة والاستخارة، ما وقع في صلح الحديبية من تقديم تنازلات من أجل تحقيق مصالح كبرى، فأبدى ﷺ قبوله بالتّفاوض واستعداده لقبول ما تطلبه قريش ما لم يخرج عن دائرة تعظيم حدود الله وحرمة بيته الحرام، مجسدا خاصية الثبات على المبدأ مع المرونة في التفاوض، وقد أثبتت السنوات اللاحقة صدق استشراف النّبي ﷺ فتحول صلح الحديبة بعد أن بدا خيبة للمسلمين في بدايته إلى نصر عظيم، قويت به شوكة الإسلام.[32]

ومن بين الشّواهد على المرونة في التعامل مع الأزمات إدراكا منه ﷺ لواقعه المعيش حادثة الهجرة النّبوية والتّي تجلّت فيها المرونة في التّعامل في الاستفادة من الخبرات مهما كان مصدرها ما لم تتعارض مع شرع الله، فاستئجاره ﷺ لعبد الله بن أريقط وهو على دين قريش مثال على هذه المرونة، لكونه ذو خبرة ومهارة بمعرفة طرق الصحراء، فكونه على دين قريش مع هذه الخبرة وأمن حاله جعلته ﷺ يستفيد من درايته، ولم يكن كفره حائلا في التعامل معه.[33]

فهذه الشواهد وغيرها كثير تبرز المرونة التي كان يتسم بها المنهج النّبوي في التعامل مع الواقع، وهذا المبدأ تحتاجه الحركة الدعوية المعاصرة كواقع عملي وليس مجرد شعارات.

7- خاصية التدرج:

الكون كله قائم بأمر الله تعالى وفق نظام وترتيب دقيق، ليحصل الثبات والاستمرار، فكل شيء بقدر، والكون تحكمه سنن مبثوثة قدرها الله سبحانه لتنتظم وفقها كل المخلوقات بما فيها الإنسان، ومبدأ التدرج من بين السنن و المبادئ التي قامت عليها الشريعة الإسلامية، وهو مبدأ قرآني تجلت معالمه بوضوح في عديد الآيات، وفي ذلك يقول الشيخ القرضاوي:" ... مراعاة سنة التدرج، جريا على سنة الله تعالى في عالم الخلق، وعالم الأمر، واتباعا لمنهج التشريع الإسلامي في فرض الفرائض من الصلاة والصيام وغيرهما، وفي تحريم المحرمات كذلك ".[34]

وقد راعى النّبي ﷺ انطلاقا من إدراكه لمتغيرات واقع الدعوة الإسلامية هذا المبدأ في التبليغ، "وعلى الداعية تمثل منهج النّبي ﷺ في التدرج في دعوته كما تتدرج الأحداث أمامه، فلا يستعجل بها، ويسير بها عبر مراحل وخطوات مدروسة ويراعي في كل مرحلة منها أن لا يتجاوز التي قبلها، ويقدر لكل خطوة قدرها حتى يصل للخطوة التي بعدها ...".[35]

ولعلّ من بين أهم المعالم التي يتضح فيها مبدأ التدرج في سنة وسيرة النّبي ﷺ، هو المرحلية التي مرت بها الدعوة النّبوية وفقا لمقتضيات كل مرحلة، حيث بدأ بالمرحلة السرية ودامت ثلاث سنوات كاملة وكان المقصد منها بناء القاعدة الصلبة القادرة على تحمل التحديات المستقبلية، ثم تجاوزها لمرحلة الجهر بالدعوة، وهي مرحلة الصدع بما أمر ﷺ من تبليغ بالدين الجديد، مع التحلي بضبط الناس وتجنب الدخول في مواجهات مع المجتمع القرشي، لتليها مرحلة الدفاع والمقاومة من خلال تشريع القتال، هذه المراحل على اختلاف زمانها ومكانها تنبئ عن منهج نبوي يتدرج وفق أحوال الزمان والمكان مع مراعاة أحوال الناس وواقعهم.

ومن المعالم التي يتجلى فيها بُعد التدرج النّبوي في الدعوة هو بداية الدعوة بالأقربين من أهل البيت ثم أهل العشيرة ليتعداه فيما بعد إلى القبيلة ليكون الخروج بعدها خارج دائرة مكة وما حولها وصولا إلى المدينة، فالأمصار التي تليها وهكذا، وهي استراتيجية في توسيع دائرة المدعوين كلما تحقق وصول الدعوة إلى الفئة المستهدفة محليا، وهذا لأجل حماية منجزات تلك المرحلة مع الحفاظ عليها والعمل على تجاوزها لأكبر حيز مكاني، ولم يتحقق ذلك في المنهج النّبوي إلا لما أدرك النّبي ﷺ متغيرات كل زمان ومكان مع الإحاطة بالمعادلات النفسية والاجتماعية للمدعوين.

كما يظهر منهج التدرج في المنهج النّبوي متعلقا بالأحكام الشرعية، فبدأت دعوته ﷺ ببناء المنظومة العقدية والعمل على ترسيخها في القلوب لينتقل بعدها إلى المنظومة التشريعية، وراعى

فيها مبدأ الانتقال من حكم لآخر، فبدأ بالصلاة ثم الزكاة فالصوم وهكذا كما في حديث معاذ لما بعثه لليمن.

ومن بين المعالم أيضا وسائل دعوة النّبي ﷺ وأساليبها، دلالاتها على مراعاة التّدرج ظاهرة، فمرحلة الظهور والتعريف (المرحلة المكية) كانت الدعوة فيها بالقول والبيان، ومرحلة الانطلاق والتأسيس (المرحلة المدنية الأولى) كانت الأولوية فيها للجهاد والسنان، ومرحلة الاستقرار والانتشار (المرحلة المدنية الثانية) كانت الكتب والرسل والرسائل والبعوث، فهو ﷺ يستخدم منها مراعيا مناسبته للظرف الزماني والمكاني الذي يحيط به، فقدم الوسائل والأساليب وتدرج فيها، لأن لكل مرحلة ما يناسبها من الوسائل والأساليب.[36]

فمن خلال هذه المعالم وغيرها تظهر الحاجة الواقعية لمبدأ التدرج في الدعوة إلى الله مع مراعاة أحوال المدعوين ضمانا لبلوغ الدعوة ونجاحها، ثم حفاظا على أتباعها وصونا لهم من التساقط، فمثل لنا منهج النّبي ﷺ أعظم الأمثلة في ذلك عبر مختلف مراحل الدعوة النّبوية، في مرحلتيها المكية والمدنية حتى وصلت لمرحلة النصر والتمكين.

8- الفعالية في توظيف الطاقات:

إن من معالم إدراك فقه الواقع في المنهج النّبوي هو تولية أصحاب الكفاءة في المناصب التي يكونون أهلا لها، فمعرفة النّبي ﷺ بطبيعة أصحابه وبالمعادلة النفسية لكل واحد منهم، حيث "حرص على استيعاب الأتباع تربية، وتنظيما ورعاية، والعمل على استثمار طاقاتهم وإمكاناتهم بإيجابية وفعالية، ... وانطلاقا من واقعية الدعوة ومرونتها، فقد فسح المجال للاستفادة من كل الخبرات الفنية، والمهارات العلمية، وتوظيف كل الإمكانات الفكرية والمادية، في مواجهة التحديات التي تعيق مسيرة الدعوة بفعالية كبيرة، لتصل إلى آفاقها الرحبة، ففي الإمكانات الفكرية، برزت العبقرية القيادية في معرفة إمكانات الرجال، ... عن طريق مبدأ الشورى، ففي غزوة بدر أخذ ﷺ برأي الحباب بن المنذر ﷺ في اختيار مكان الحرب[37]، وفي الأحزاب أخذ برأي سلمان الفارسي ﷺ بحفر الخندق[38]، وفي الحديبة أخذ برأي أم سلمة زوجته بنحر الهدي أمام أصحابه ليقتدوا بفعله ﷺ.[39]

كما كان من منهجه ﷺ في إدراك فقه الواقع، مراعاة مؤهلات أصحابه وما يتمتعون به من دراية بالوظائف التي يوكل أمرها إليهم، فاختار مصعب بن عمير ﷺ ليكون سفيرا على المدينة[40]، واختار معاذا ﷺ ليكون رسولا لليمن[41]، واستخلف عليا ﷺ على المدينة، وغير ذلك من المهام التّي كان يكلف بها أصحابه بناء على مراعاة المؤهلات القيادية والنفسية لكل واحد منهم، وهذه سمة القائد

العارف بأتباعه، " والأمثلة كثيرة على نجاح الرسول ﷺ في توظيف كل الإمكانيات المتاحة بفعالية كبيرة، في مواجهة التحديات، وحسن ترشيدها لخدمة الدعوة، انطلاقا من إحساسه الكبير بحجم المسؤولية الملقاة على عاتقه، ووضوح أهداف دعوته، ونبل رسالته ...".[42]

الخاتمة:

تحتاج الدعوة الإسلامية في الوقت الراهن إلى اتّخاذ كلّ الأسباب والآليات للوصول للأهداف المنشودة، ولعل من الموجبات الرّاهنة لنجاح العمل الدّعوي هو إدراك فقه الواقع، على اعتبار أنّ هذ الأخير يهدف لمعرفة ما به يكون التّجديد ألا وهو الدّين ممّثلا في الكتاب والسّنة، كما يهدف لمعرفة من يكون له التّجديد ألا وهو الإنسان موضوع التّغيير، كما يهدف أيضا هذا الفقه إلى معرفة كيف يكون التّجديد، وهو الحاجة للمنهج الذّي يستخدم في التّغيير والاصلاح.

كما أنّ من خصائص فقه الواقع في العملية الدّعوية هو قابليته للتّطور والتّجدد وحاجته لكل العلوم سواء منها علوم الوحي أم علوم الإنسان، انطلاقا ممّا تقدم من هاتين المقدمتين، ومن خلال هذا العرض الموجز لمنهج النّبي ﷺ في إدراك فقه الواقع من خلال ممارسته الشّريفة للدّعوة، وآليات تجلّي هذا البعد، تبيّن لنا أنّه ينبغي قراءة السّنة والسّيرة النّبوية قراءة حركية من أجل توظيفها في الممارسة الدّعوية المعاصرة، بعيدا عن السّرد القصصي، كما ينبغي الاستلهام من المنهج النّبوي في التّعامل مع الواقع من حيث المعرفة بأسباب نجاح الحركة الدّعوية، ومعرفة منهج مواجهة التّحديات المشكّلة للواقع الإسلامي والعالمي من خلال المنهج النّبوي.

كما أنّ من ضرورات البعد الواقعي في الرّاهن هو توظيف البعد المقاصدي في قراءة الواقع من خلال استقراء المنهج النّبوي في التّغيير والإصلاح، وهذا حتّى لا تقرأ السّنة قراءة تجزيئية ظاهرية، سواء من قبل التيارات الفكرية المعاصرة أم القديمة.

الحواشي والإحالات

[1]- الطيب برغوث: منهج النّبي ﷺ في حماية الدعوة والمحافظة على منجزاتها، ط1(1416هـ -1996م)، المعهد العالمي للفكر الإسلامي، ص 465.

[2] - المرجع السّابق: ص 466.

[3] - سورة الأنعام: الآية 55.

[4] - سورة البقرة: الآية 120.

[5] - سورة البقرة: الآية 146.

[6] - سورة التوبة: الآية 56.

[7] - البخاري: الصّحيح، ت مصطفى ديب البغا، كتاب الصوم، باب إذا جامع في رمضان ولم يكن له شيء فتصدق عليه فليكفر، دار ابن كثير، بيروت، ط 3 (1407 هـ - 1987م)، 2/684.

[8] – نص الحديث: عن جابر ﷺ قال: خرجنا في سفر فأصاب رجلا منا حجر فشجه في رأسه؛ ثم احتلم. فسأل أصحابه. فقال: هل تجدون لي رخصة في التيمم. فقالوا: ما نجد لك رخصة وأنت تقدر على الماء؛ فاغتسل فمات. فلما قدمنا على النبي ﷺ أخبر بذلك. فقال:" قتلوه قتلهم الله؛ ألا سألوا إذ لم يعلموا، فإنما شفاء العي السؤال، إنما كان يكفيه أن يتيمم ويعصر أو يعصب على جرحه خرقة ثم يمسح عليها ويغسل سائر جسده". – أبو داود: السنن، كتاب الصلاة، باب في المجروح يتيمم، ت محمد محيي الدين عبد الحميد، دط، المكتبة العصرية، بيروت، 1/93.

[9] – نص الحديث: عن أبي مسعود الأنصاري ﷺ قال: قال رجل: يا رسول الله، لا أكاد أدرك الصلاة مما يطول بنا فلان. فما رأيت النبي ﷺ في موعظة أشد غضبا من يومئذ. فقال:" أيها الناس إنكم منفرون فمن صلى بالناس فليخفف فإن فيهم المريض والضعيف وذا الحاجة "– البخاري: كتاب العلم، باب الغضب في الموعظة والتعليم إذا رأى ما يكره، 1/46.

قد عقد محمد الوكيلي في كتابه " فقه الأولويات" مبحثا متعلقا بالأولويات في السنة يرتبط ارتباطا وثيقا بمدى فقه الواقع ضمن المنهج النبوي. ينظر، محمد الوكيلي: فقه الأولويات، دراسة في الضوابط، ط1 (1416 هـ- 1997م)، المعهد العالمي للفكر الإسلامي، فرجينيا، ص 88 وما بعدها.

[10] – محمد البنعيادى: فقه التخطيط المستقبلى فى السنة النّبوية، ط1(1432هـ-2011م)، دار السلام، مصر ، ص 53.

[11]– عبد العزيز برغوث: المنهج النّبوي والتغيير الحضاري، سلسلة كتاب الأمة، قطر، موقع إسلام أون لاين.

[12] – مسلم: الصّحيح، كتاب الذكر والدعاء والتوبة، باب فضل الاجتماع على تلاوة القرآن وعلى الذكر، ت محمد فؤاد عبد الباقي، دار إحياء التراث العربي، بيروت، دط، 4/2047

[13] – للتوسع في بيان معنى فقه الحالات، ينظر: عمر عبيد حسنة، من فقه الحالة، المكتب الإسلامي، ط1 (1425هـ-2004م)، ص 9 وما بعدها.

[14]– البخاري: الصّحيح، كتاب المناقب، باب صفة النّبي ﷺ، 3/1307.

[15]– مسلم: الصّحيح، كتاب الجمعة، باب تخفيف الصلاة والخطبة، 2/591.

[16]– البخاري: الصّحيح، كتاب المظالم، باب نصر المظلوم، 2/863.

[17]– البخاري: الصّحيح، كتاب الرقاق، باب في الأمل وطوله، 5/ 2358.

[18]– البخاري: الصّحيح، كتاب العلم، باب من خص بالعلم قوما دون قوم كراهية أن لا يفهموا، 1/59.

[19]– أحمد بن حنبل: المسند، ت شعيب الأرنؤوط وآخرون، مؤسسة الرسالة، ط 2 (1420هـ ، 1999م)، 42/144.

[20]– عبد اللطيف الأسطل: مراعاة أحوال الناس في ضوء السنة النّبوية، رسالة ماجستير، الجامعة الإسلامية، غزة، 2008م، ص 163 وما بعدها.

[21] – أبو داود: السنن، كتاب الصوم، باب كراهيته للشاب، 2/312.

[22]– البخاري: الصّحيح، كتاب الأدب، باب كراهيته للشاب، 5/2267.

[23]– البخاري: كتاب الزكاة، باب وجوب الزكاة، 2/506.

[24]– البخاري: كتاب الإيمان، باب إطعام الطعام من الإسلام، 1/13.

[25]– البخاري: كتاب الإيمان، باب من قال إن الإيمان هو العمل، 1/17.

[26] – ابن القيم الجوزية: إعلام الموقعين عن رب العالمين، ت مشهور بن حسن آل سلمان، ط 1، 1423 هـ، دار ابن الجوزي، المملكة العربية السعودية، 4/337.

[27] – البخاري: الصّحيح، كتاب الاعتصام بالكتاب والسنة، باب من شبه أصلا معلوما بأصل مبين وقد بين النّبي ﷺ حكمهما ليفهم السائل، 6/2667.

[28] – البخاري: الصّحيح، كتاب العلم، باب من أجاب السائل بأكثر مما سأله، 1/ 61.
[29]– أبو داود: كتاب الطهارة، باب الوضوء بماء البحر، 1/ 21.
[30]– مالك بن أنس: الموطأ، كتاب الجامع، باب ما جاء في حسن الخلق، 5/ 1327.
[31] – يحيى بلال: نصوص قواعدية في السنة النّبوية لإدراة الأزمات، الندوة السادسة للحديث الشريف، الإمارات، ص 413.
[32] – محمّد سَعيد رَمضان البوطي: فقه السيرة النبوية، دار الفكر، دمشق، ط 25، 1426 هـ، ص 230.
[33] – المرجع نفسه: ص 134.
[34] – يوسف القرضاوي: فقه الأولويات، ط2 (1416 هـ – 1996م)، مكتبة وهبة، مصر، ص 93.
[35]– علي الشنقيطي: استشراف المستقبل والتخطيط له وحاجة الدعوة والداعية إليه، الندوة الخامسة للحديث الشريف، الإمارات، ص 454.
[36]– استشراف المستقبل والتخطيط له، المرجع السابق، ص 456.
[37] – صفي الرحمن المباركفوري: الرحيق المختوم، دار الهلال، بيروت، ط 1، دت، ص 191.
[38] – محمود شيت خطاب: الرسول القائد، دار الفكر، بيروت، ط 6 (1422 هـ – 2002 م)، ص 228.
[39] – عماد الدين خليل: دراسة في السيرة، دار النفائس، بيروت، ط 2، 1425 هـ، ص 191.
[40] – الرسول القائد: المرجع السابق، ص 66.
[41] – محمد الغزالي: فقه السيرة، تخريج الأحاديث: محمد ناصر الدين الألباني، دار القلم، دمشق، ط 1، 1427 هـ، ص 452.
[42]– عمار دحماني: منهج النّبي ﷺ في مواجهة التحديات، رسالة ماجستير، جامعة باتنة، 2009م، ص 215.

The realistic dimension in the fiqh of change in light of The Prophetic Method

By: Dr. Akram Belamri
Institute of Islamic Sciences -Eloued University

Abstract:

The present topic aims at studying the aspects of realism in the biography of the Prophet Mohamed-peace and mercy be upon him. The topic has been studied through defining realism, then showing its presence in the sunnah of the prophet Mohamed-peace and mercy be upon him. The aspects of realism emerged in the approach of the prophet in the call (Daawa) through his knowledge of people's problems, especially when he answers questions, or when he finds a solution to the various crises. These aspects appeared also in the use of the competences in important and difficult responsibilities, and the adoption of the gradient rule in everything, whether the legislation or the call (Daawa).

Keywords: The real dimension, The Prophetic Method, the biography of the Prophet.